

بعض جوانب من التزوير في الإنتاج الفكري

يصنعون في الاعراس ، ويتبشرون الرجال والولدان ، لانه (اي الشاعر) حماية لاعراضهم ، وذبح عن احسابهم وتخليد لمآثرهم ، واشادة بذكرهم . وكانوا لا يهتنون الا بظلام يولد ، وشاعر ينبغ فيهم ، او فرس تنتج .

فالاديب اذن عظيم القدر بين بني قومه من جهة ، ولكنه من جهة اخرى مرهوب الجانب ، ومظنة للسوء ، لانه معرض لان تنزلق به القدم في دروب الفكر اللثوية ، فيتاجر بالكلمة ويؤول به الامر الى الحالة التي وصفها المنبئ بقوله :

وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد
وبذلك يصبح كغيره من المشعوذين ، ومعنى هذا ان تسخير القلم في الافتراء وتزوير الحقائق لا يقل مضرة عن الشعوذة والتدجيل وربما صح القول بعد هذا ، بان تزوير الحقائق ، اذا تمده الكاتب لفرض في نفسه ، ويقصد تضليل بني قومه ، ليس خطرا على مستقبل الثقافة فحسب ، بل هو كذلك جريمة نكراء يجب ان يصاقب عليها .

على انه لا يجوز ادانة الكاتب والفكر بمثل هذه السهولة . وعندما نسمع الشاعر البخري يقول :

كفتمونا حدود منطقتكم والشعر يعني عن صدقه كذبه

عندما نسئله يقول هذا ، قد نتوهم ان الكذب والتزوير والافتراء من الصفات اللاصقة بالشعر ، لان الشاعر لا يحكم العقل ولا المنطق ، بل ينساق للعاطفة ويستجيب لها ، ولذلك قيل بان اصدق الشعر كذبه ، والحقيقة ان كلام البخري يحتاج الى تاويل ، والى تفسير على ضوء نظرية الاعلام . فهذه النظرية تقول بان الخبر ، مهما توخينا الدقة في نقله وتبليغه ، لابد من ان يطرا عليه شيء من التغيير (او التزوير) .

والسبب في ذلك ان طبيعة الخبر تقتضي ان يكون مجهولا لدى المخاطب ، ولو كان معروفا لديه ، لكان من العبث توصيله اليه . فالنحاة مثلا يشترطون في الخبر ان يكون نكرة ، ولا يجوز عندهم ان يكون معرفة . ويمكن القول بان الخبر يزداد اهمية لدى السامع او القارئ على قدر جهلها به . والسؤال المطروح بعد هذا هو السؤال التالي : هل الاخبار التي تم نقلها من مكان معين هي نفس الاخبار التي وصلت الى مكان آخر ؟ ام انه يطرا عليها في الطريق شيء من التغيير والتزوير ؟

ان الاديب ان هو الا صلة الوصل بين الواقع بما يجد فيه من اشياء واحداث وصفات ، وبين القارئ الذي يتلقى عن ذلك الواقع صورة صادقة او كاذبة ، واضحة او باهتة ، امينة او بعيدة كل البعد عن الاصل الذي اشتقت منه . ولما كانت هذه الاشياء والاحداث والصفات مجهولة لدى القارئ اي ان ذهنه خال منها ، فان الاديب سوف يجد نفسه - بصورة مقصودة او غير مقصودة - ميالا الى التغيير في بعض العناصر المؤلفة لها ، بقصد تشويق القارئ ، واثارة اهتمامه ، وجعله ينسى وطأة الواقع البغيض وينشوق الى المستقبل المأمول . فهل نلوم الاديب اذ ينمق الكلام ويؤخره ويضيف بغيره واسلوبه لسات سحرية تجعلنا ننسى الهموم ، فيمادونا الامل بعد اليأس ؟ هل نسمى ذلك تزويرا ؟ وهل نقول عنه بانه كذاب بعدما جعلنا نتوهم الجمال والهناء والسعادة ، حيث لا يوجد سوى القبح والهم والشقاء ؟ الحقيقة ان الاديب حتى

سوف اعالج موضوع التزوير اولا ، على مستوى الاديب المنتج ، ثم على مستوى الناشر .

اولا : عندما نتناول موضوع التزوير في الإنتاج الفكري نتساءل بادىء ذي بدء عن مدلول هذه الكلمة . فالتزوير يعني ، اول ما يعني ، الادلاء بشهادة الزور . المسألة اذن متعلقة بالشهادة : فاما ان يصف الاديب الامور كما شاهدها من غير تدليس ، واما ان يتنكر للحق ، ويتبع الباطل ، فيدجل ، ويعرف الكلم عن مواضعه . والمسألة بعد هذا متعلقة بالشجاعة ، والالتزام ببعض المبادئ ، والايمان ، والصبر على المكراه . وذلك ان الادلاء بالشهادة ليس بالامر السهل ، في عالم كثرت فيه المغيرات والفتن والمذاهب ، فبات لزاما على الانسان ان يرجع الى ضميره في كل ما يقول ، لكيلا يبيع الكلمة بابيخس الاثمان ، ولكيلا يتعصب لآخيه ان ظالما او مظلوما ، ولكيلا يتحيز للاراء والمذاهب ، سعياء وراء المجد الزائل ، او طمعا في نيل المنصب الرموق .

وبناء على هذا ، فان الشرط الاساسي بالنسبة للاديب او المفكر ، هو ان يدلي بشهادته في ما يراه ويسمعه ويحسه ، وان تكون هذه الشهادة خالصة لوجه الحق ، وان يكون صادقا في ما يقول . وذلك ان الاديب يتنازعه دائما ميلان قويان : الميل للصدق ، والميل للكذب .

وربما صح للبعض ان يقولوا بان الاديب ميال بطبيعته للتزوير والكذب ، والدليل على ذلك ان القرآن الكريم حذر من دجل الشعراء عندما قال : « والشعراء يتبعهم الفاوون ألم تر انهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون » كما ميز « الذين هم بشهاداتهم قائمون » وانى على « الذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراما » وحث على الصدق في الشهادة : « واجتنبوا قول الزور » .

والحقيقة ان تماطي صناعة الادب مظنة للسوء ، لانها تتعلق بمجال خطير من مجالات الحياة الا وهو : وضع الانسان في الحاضر ، ومصيره في المستقبل . ولذلك فان الاديب قد تسول له نفسه ان يتشبه بالانبياء ، والمرسلين ، وان يدعي بان له صلة بالقيوم ، وانه يدرك بصيرته مالا يدركه الناس بابصارهم ، فكس من اديب ، وكس من مفكر ، يعتقد اليوم في قرارة نفسه بانسه « يحمل رسالة » لا تقل خطورة عن الرسالة التي حملها من قبله الرسل والانبياء ، وان بني قومه اذا تنكروا له ولم يعرفوا قدره ، فلان النبي - كما يقول المثل الفرنسي - لا ينجح ابدا في نشر الدعوة بين ابناء قومه .

ولا ينبغي ان ننسى بعد هذا ان الكلمة في نظر الناس مقدسة ، ولها اصل الهي . وهذا ما يستفاد من قوله تعالى : « وعلّم آدم الاسماء كلها » .. فلا عجب اذا وجدنا من ينسب الى الكلمة قوة لا تعدلها قوة ، وهي قوة السحر . وقدما قيل « وان من البيان لسحرا » وبما ان الاديب يتعامل بالكلمة ، فانه مظنة للسوء ، لان تلك الكلمة سلاح رهيب ، يمكن به ان يكشف عن امور قد تضر ابناء قومه او تفهمهم .

وقد جاء في « العمدة » لابن رشيق ما يلي :

« وكانت القبيلة من العرب اذا تبغ فيها شاعر ، اتت القبائل فهناتها ، وصنعت الاطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالزاهر ، كما

ولو فرضنا انه يكذب ، الا ان كذبه مقبول ومستساغ ، بل هو كذب يرتاح له القارئ ، لانه ينقله الى عالم اقل بشاعة واكثر عدلا . واذا كان الاديب لا يحكم المنطق احيانا ، ويرجع العاطفة على العقل فلان العالم الدنيوي الذي نعيش فيه لا يخضع دائما للمعقول ، ولان الاحاسيس الرهفة والهواجس الخفية لا يمكن ان تصاغ في قوالب المنطق الجامدة . ولهذا يمكن القول بان « كذب » الشعراء ، على حد تعبير البحري ، مقبول ، وان « التزوير » في الاعمال الادبية مقبول ايضا اذا كان لاغراض بلاغية ، ومنحصرا في نطاق الصناعة اللفظية وكان القصد من ذلك كله هو الترفيه عن القارئ و « الامتاع والمؤانسة » كما قال ابو حيان التوحيدي .

لم يتسع نطاق التزوير عند القدامى ، لان طريقة التسجيل الوحيدة عندهم كانت هي الكتابة باليد . غير ان الكتابة باليد ان هي الا طريقة من طرق التسجيل . وكلما اهتدى الانسان الى طريقة توفر له الوقت والجهد والتفقات ، فانه يتخلى عن الطريقة القديمة . فلقد يستعيز عن الكتابة بنوع من الاختزال ، او بالتسجيل على شريط ، او بالضرب على الالة الرافنة او بالسحب على ورق الحرير ، او بالطباعة ، وما الى ذلك من طرق الاستسناخ الاخرى . وقد يستغنى تماما عن الكتابة بنفسه ، فيستعين بغيره ممن الكتب ليتوبوا منابه .

على ان الكتابة باليد لها فضل على سائر الطرق الاخرى . وذلك انها - بعد الصوت - الصق طرق التبليغ بنفس الانسان . ان القلم الذي نسلك به بين الانامل ان هو في الواقع الامتداد لليد . انه - وهو يخط على الورق - يصدر بصورة مباشرة عن القلب والعقل معا . ولذلك كان للمخطوط عند مختلف الشعوب حرمة بل قدسيته ، ولذلك ايضا نجد ان بعض الوثائق الهامة لا يمكن ان تعتمد الا اذا كانت بخط اليد ، ولعل السبب هو ان الخط بتقلباته وتموجاته وتبدلاته ، مرآة لشخصية صاحبه ، فمن الصعب اذن تزويره . اما الكتابة بحروف الطبعة ، فانها تسج على منوال واحد ، لان جميع الحروف واحدة ، ولذلك يصبغ التزوير ممكنا .

وليس معنى ذلك ان القدامى لم يعانون من آفات التزوير . فلقد كان الابداء في مختلف العصور يشكون دائما من الانتحال والسرقة والسطو على انتاجهم . غير ان الداء لم يستفحل الا في العصور الحديثة عندما دخل الانتاج الفكري مرحلة التصنيع . ان انتاج الاديب يظل في حكم العدم اذا بقي حبرا على ورق ، وسطورا سوداء . وذلك ان انتاجه في حاجة الى عملية لاحقة تخرجه من حيز الوجود ، وهذه العملية تسمى القراءة .

غير ان هذا الانتاج لا يصل الى القارئ الا بعد المرور بمراحل ، وفي كل مرحلة منها يتعرض للتغيير ، والتحريف ، والتشويه ، والتزوير ، والنقصان ، وأحيانا للنسيان والاهمال في ادراج المكاتب .

والتزوير يقع اول ما يقع على يد الرقيب الذي يقيد حرية الكاتب في التعبير عن آرائه ، ويمارس نوعا من الوصاية على الثقافة ويضع معايير لتقييم الانتاج لا علاقة لها بالفكر . فكم من كتاب حكم عليه بالاعدام ، وحرّم منه القراء ربما الى الابد ، بدعوى ان صاحبه تقدمي أو رجعي ، أو يميني أو يساري ، أو مستهتر بالأخلاق ، أو مناوئ للنظام السياسي القائم .. وقد يمنع الكتاب لا لسبب سوى لان الرقيب لم يفهمه حق الفهم ، فيضع عليه العلامة الحمراء ، لان ذلك أسلم على أية حال ، وادعى للراحة والاطمئنان .

والحقيقة ان « الرجعية » و « التقدمية » و « النزعة اليمينية » و « النزعة اليسارية » من الشعارات السياسية التي لا يجوز ان تتخذ معيارا في تقييم الانتاج الفكري . ومما لا يناقش فيه أحد ان الادب أصبح شديد الصلة بالسياسة ، وان الاديب الحق هو من يلتزم بالدفاع عن قضايا الانسان العادلة حيثما كان .. هذا صحيح ، ولا يناقش فيه أحد .. أما وصف الاديب بانه « رجعي » فهذا

امر لا يخلو من القذح في شخصه . ومعنى ذلك اننا ، عوضا عن ان ننظر الى فكر الانسان وأدبه بكل تجرد وموضوعية ، فاننا ننظر الى شخصه ، ونلتصق له الهفوات . ولا يسع الاديب في مثل هذه الظروف الا ان يتخذ موقفين : فاما ان يحطم قلمه ، واما ان يمارس نوعا من الرقابة الذاتية أو نوعا من « التزوير الذاتي » اذا صح التعبير ، فيستمر في الكتابة والتأليف ، ولكنه لا يعبر الا عما سيرضى عنه الرقيب .. وعندما نقول « الرقيب » فنحن لا نعني بالضرورة شخصا معينا يجلس وراء مكتب ، يأمر وينهي ويتصرف كما يشاء في ميدان التأليف . بل نعني جميع أنواع الضغوط المادية والمعنوية التي يتعرض لها المنتج من مختلف الجهات لتصرفه عن موضوع معين أو لتقترح عليه موضوعا معينا ، أو لتشرمه من طرف خفي بان هذا الفصل أو ذلك من كتابه غير مناسب ، وانه من الافضل ان يحذف ..

والادى من كل هذا ان الاديب في كثير من الاحيان لا يختار المرتقى الصعب ، بل ينساق وراء الحلول السهلة ، فتسول له نفسه الاقتداء بالناجر والمهندس والطبيب والمحامي ، وغير هؤلاء من اصحاب المهن الحرة . فلقد يقول في نفسه : ان مهنة الادب تستلزم من الذكاء والعناء ما تستلزمه مهنة المهندس والطبيب ، فالى متى اظل محروما من نعم الحياة ؟.. والغريب انه يجد من المجتمع حوله تشجيعا على الضي في هذا السبيل : فأغلب القراء لا يميلون الا لما يسمى بالمطالعات الخفيفة .. والناشر سوف يقنعه بأن الكتب البسطة ، وروايات الجيب ، والقصص البوليسية ، ومغامرات الجواسيس ، وكتب الجنس والطبخ ، أكثر رواجاً من المؤلفات التي لا يزال بعض « المتزمتين » يكتبونها ، فلا يجدون من يقرأها .. ورجال الصحافة والإذاعة والتلفزة سوف يشعرون بانه لا سبيل الى قبول انتاجه الا اذا توفرت فيه بعض الشروط ، وكتب على نمط خاص مقرر سلفا .

اضف الى كل هذا ان الادب أصبح « مصنعا » تماما . فقد تسربت اليه أساليب لم تكن تستخدم الا في مجال النشاط الاقتصادي ، كاصدار النشرات البسطة ، والاقتباس ، والاختصار وما الى ذلك من الاساليب الاخرى .. بل أصبحت تمقد اتفاقيات لشراء حقوق الترجمة قبل صدور الكتاب في اللغة الاصلية ..

ان المبدأ الاساسي الذي ينبغي ان تتقيد به دور النشر هو احترام الشهادة التي ادلى بها الكاتب .. ينبغي ان تظل تلك الشهادة نقية طاهرة لم يمساها نسي ولا جان .. غير ان ادب الارتزاق للأسف الشديد هو الادب السائد اليوم . وقل نفس الشيء بالنسبة لصنوه ونظيره ، ادب الاستهلاك .. ولذلك فان انتهاك حرمة هذه الشهادة أصبح من الامور المعتادة التي لم تعد تثير الاستغراب .

ويقع التزوير في شهادة الكاتب :

أولا - باستئجال الكاتب ، وفرض شروط مجحفة عليه في التعاقد ، ومطالبته بدفع المخطوط قبل موعد محدد ، مع تهديده - ان لم يفعل - بالحرمان من حقوقه ، او بفرض عقوبة مالية عن كل تأخير .

ثانيا - بالاقتباس أو باصدار نشرات مبسطة أو مختصرة ، سواء من أجل السينما أو المسرح أو التلفزة او غير ذلك من وسائل الاعلام والتبليغ . فلا بد في كل هذه الحالات من استئذان المؤلف ، لكيلا يستغل اسمه في ترويج طبعة قد تكون ممسوخة ومشوهة .

ثالثا - بالترجمة من غير ان يستأذن المؤلف . وهنا تقع على مشكلة الفوضى السائدة في عالم الترجمة . فهذه المهنة أصبحت في أشد الحاجة الى تنظيم ، والى وضع قوانين ، لكيلا يكثر فيها الدخلاء الذين يقبلون المؤلفين ما لم يقولوا ، لانهم يجهلون أسرار هذه المهنة . وحيذا لو يتم انشاء اتحاد المترجمين العرب ، على غرار الاتحادات العربية الاخرى ، وعندئذ يتأتى للجامعة العربية ان تحصى الكفاءات الموجودة في هذا الميدان ، وأن تضع قائمة الكتب التي تستحق الترجمة ، وأن تضع « الدليل العام للترجمات الصادرة في البلاد العربية » لكيلا تنكرر الترجمة ، ولكيلا تضع الجهود .

أو ربما افترضوا بأن المؤلف لن يجزؤ على إقامة الدعوى عليهم أمام المحاكم بسبب التكاليف المالية ، والمماطلة في إصدار الحكم ، ومن المؤسف جدا أن نرى بعض دور النشر تسارع الى اقتناء الآلات الحديثة ، لا لنشر الثقافة على أوسع نطاق ، ورفع مستواها في البلاد ، بل للاعتداء على ملكية الغير ، وتشبيط عزائم المؤلفين وخنق مواهبهم واسكات اصواتهم .

اننا نجتاز اليوم مرحلة اصبح الاهتمام فيها كبيرا بالتراث العربي الاسلامي . وكان من المفروض أن تسود روح التعاون بين دور النشر ، من أجل احياء هذا التراث الذي أصبح من التراث الإنساني . الا اننا نجد أن الفوضى السائدة في هذا الباب لا نظير لها . والسبب في ذلك ان روح الارتزاق هو الذي يتحكم في جميع الخطط والمشاريع التي تضعها دور النشر . فهناك مثلا تهافت على بعض الكتب ، كالقصد الفريد ، والاغاني ، ولسان العرب ، في حين أن كتبا أخرى لا تقل عنها اهمية لم تحظ الى حد اليوم بأية التفاتة من طرف دور النشر ، واذا استمر الوضع على ما هو عليه فسوف تظل العشرات من الكتب الثمينة في طي النسيان الى الابد ، وفي ذلك خسارة كبرى للبحث العلمي .

وكان من المفروض أن لا يقع التزوير في هذا الباب ، لان نشر التراث العربي الاسلامي لا يحتاج الى ترخيص من أحد ، ولان هذا التراث لا يجوز أن يحتكره أحد . ومع ذلك فان التزوير يقع بالفعل ، عندما يأخذ أحد الناشرين نسخة حققها غيره ، فيدخل على ذلك التحقيق تعديلات بسيطة ، من حيث شرح المفردات وترتيب الحواشي ، ليوهم الناس بأنه قام بعمل جديد ، وان الدافع الأساسي لعمله هو احياء التراث والغيرة عليه .

وبعد ، فقد آن الاوان أن تسود روح التعاون بين المؤلف والناشر ، وبين الناشرين أنفسهم ، ليس عن طريق عقد الندوات والملتقيات فحسب ، واصدار توصيات يظل أكثرها حبرا على ورق ، بل لابد كذلك من اتخاذ خطوات بناءة على مستوى العالم العربي ، من أجل التعجيل بالوحدة الثقافية ، في انتظار الوحدة الكبرى . وهذه الوحدة الثقافية يمكن أن تعجل بها عن طريق عقد اتفاقيات للنشر المشترك ، وتنظيم شبكات التوزيع في جميع انحاء البلاد العربية ، وتبادل المعلومات بشأن الكفاءات المتوفرة في مجال التأليف والترجمة ، والقضاء على الفوضى السائدة في مجال احياء التراث ، وسن قوانين صارمة لمعاقبة المزورين بدون هوادة .

الجزائر

رابعا - باستخدام مطابع اكل عليها الدهر وشرب ، والاستعانة بمصححين وتقيين غير أكفاء .. فانتاج الاديب كثيرا ما يصدر عن هذه المطابع في حالة يرثى لها ، هي حالة المسخ والتشويه . فالإخطاء المطبعية لا تعد ولا تحصى ، والاسطر منقولة او «مزحلقة» عن مواضعها ، والصفحات مقلوبة الخ ..

خامسا - اصدار نشرات خاصة بكل بلد .. وذلك أن بعض الناشرين واصحاب المجلات يسمحون لانفسهم باقتطاع هذا الجزء أو ذاك من المقال ، واخراجه في الثوب الذي يلائم نظام الحكم في هذا البلد أو ذاك . وهذا هو السبب في أن الباحثين الذين يتبعون الحركة الادبية والفكرية في البلاد العربية يهتدون في أبحاثهم الى نسخ مختلفة من المقال الواحد ، فيختارون ، ولا يدرون ما هو الاصل .

سادسا - بالاستهتار بحقوق المؤلف المادية والمعنوية : فشروط التعاقد بين الكاتب والناشر تملئ من طرف واحد ، وليس للكاتب الا أن يذعن ويخضع لهذه الشروط ... وكم من كتاب يتفق بشأنه على أن يطبع منه ثلاثة آلاف نسخة ، في حين أن الناشر يسمح لنفسه ، من غير حسيب ولا رقيب ، بطبع أضعاف هذا العدد ، مع حرمان المؤلف من حقوقه .

لقد تبين مما سبق أن التزوير يؤدي :

اولا - على مستوى الكاتب ، الى تنكزه لفنه ، وممارسة نوع من الرقابة الذاتية على عمله ، فيشوه بذلك انتاجه ، ويتخلى عن الصدق في الاداء ، وينساق وراء أساليب الكذب والتزوير .

ثانيا - على مستوى الناشر ، الى افساد العلاقة الطيبة التي كان من المفروض أن تسود بينه وبين المؤلف . ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد ، لان التزوير يؤدي في آخر الامر الى افساد العلاقات بين الناشرين أنفسهم .

ويتخذ التزوير هنا اشكالا متعددة :

فلقد تصدر ترجمة جيدة لكاتب ، حتى اذا صادفت من القراء نجاحا كبيرا ، عمد المزور الى ادخال تعديلات طفيفة عليها ، وقام بنشرها على هذه الصورة ، مدعيا بأنه صنع ترجمة جديدة ، وأنه لا شيء يمنعه من أن يكرر الترجمة .

ولعل اخطر انواع التزوير هو ما درج عليه بعض قرصان النشر من استعمال مطابع الأوفست في السطو على انتاج الغير ، واخراجه مطابقا للاصل ، من غير زيادة ولا نقصان ، بقصد اخفاء هذه الجريمة النكراء . والاغرب من كل هذا أن هؤلاء يجترئون على المؤلف ، وهو لا يزال على قيد الحياة ، وكأنه لا توجد قوانين لحمايته من جشعهم ،